من تراثنا

بقلم : الدكتور محمد بن سعد الشويعر

لقد كانت الجزيرة العربية ـ حيث الحرمين الشريفين ، ومهبط الرسالة المحمدية ـ محط الأنظار ، ومأوى الافكار ، وملاذ المسلمين في عصورهم المختلفة خاصة عندما تلم بهم الكوارث ، وتحيط بهم الفتن • هذا بالنسبة للمعتقد ••

أما الناحية العلمية : فان الارتباط الروحي بالأماكن المقدسة ، دفع بكثير من العلماء عدم الاطمئنان على ثمرة جهودهم ، وتراث أمتهم في بلاد بعيدة عن الحرمين •

ذلك أن الكوارث التي مرت بمواطن الحضارة الاسلامية في بغداد والقيروان والأندلس ، والعداء المستحكم الذي دفع بالتتار والصليبيين في حقدهم على الاسلام ، الى احراق الكتب العربية في أمهات المدن الاسلامية التي استولوا عليها في حروبهم المتعددة مع الاسلام ، هذه الكوارث جعلت المسلمين يرتبطون بمنبع الرسالة ، ومهابط الوحي ، كلما حز بهم أمر ، أو ألمت بهم كارثة •

فكانت المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ورباطاتهما ، وما يرد اليهن من الكتب والنفائس محط أنظار طلاب العلم ، وراغبي المعرفة ، حيث تمتلىء الخزائن بالجيد من المخطوطات ، والنادر في شتى العلوم •

ولن نتعرض لما تسرب من هذه الخزائن ، الى مكتبات شستربتي بايرلندا ولندن وغيرهما .. فهذا مـا تكفل به علامـة الجزيرة الشيـخ حمد الجاسر فـي أكثر من مناسبة (١) .

ولكن الذي يجب أن يشاركني فيه القارىء هـو التعريف بمخطوطة نادرة ، وفيما يبدو أنها تصبح النسخة الوحيدة في العالم ، هذه المخطوطة هي : « المصون في سر الهوى المكنون » ومؤلفها : أبو اسحاق الحصري القيرواني (٣٦٣ ـ ٤١٣) (٢) .

وان التعريف بهذا المخطوط القيم ، يستوجب الافاضة في الحديث عنه ، وعن من أشاد به من ذوي الاقلام حديثـا وقديما .. وتعريف بمضمونـه ومحتواه .. ووصف له .

منزلة الكتاب عند الباحثين :

أول من ذكر المصون في سر الهـوى المكنون تلميذ الحصري الأصغر : الحسن ابن رشيق (٠٠٠ ـ ٤٥٦ هـ) (٣) .

ووصفه ابن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٧٤ هـ) بأنه مجلد واحد فيه ملح وآداب (٤) . وقد علق السنوسي على اشارة ابن رشيق بأن هذا الكتاب لا يزال منه نسخة خطية في مكتبة ليدن بهولندا .. وأخرى في مكتبـة شيـخ الاسلام بالمدينة المنورة وتقـع في أربعمائة صفحة كبيرة (٥) .

أما ابن السراج (١٠٧٠ ـ ١١٤٩ هـ) فقال عن الحصري : ومن كتبه : كتاب المصون في سر الهوى المكنون ، في مجلد واحد فيه ملح وآداب ذكره ابن رشيق في كتاب الأنموذج (٦) .

وقال عنه علامة تونس حسن حسني عبد الوهاب رحمه الله ان منه نسخة بمكتبة ليدن بهولندا كما ذكر أنه يسمى أيضا المصون في الدر المكنون (٧) ، الا أن الشيخ عبد العزيز البشري (٠٠٠ ـ ١٣٦٢ هـ) يرى أن هذه التسمية من ياقوت الحموي (٥٧٤ ـ ٦٢٦ هـ (٨) ٠

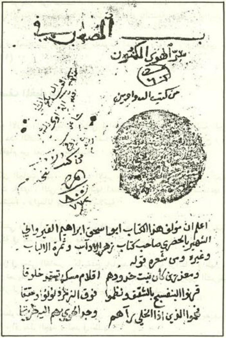

المصون في
سر الهوى المكنون
من كتب العواجين

اعلم ان مولف هذا الكتاب ابو اسحق ابراهيم القيرواني الشهير بالحصري صاحب كتاب زهر الآداب وثمرة الالباب وغيره ومن شعره قوله

ومعذرين كأن نبت خدودهم اقلام مسك تستمد خلوقا
قرنوا البنفسج بالشقيق ونظموا فوق الزمرد لولوا وعقيقا
فهم الذين اذا الخلي رآهم وجد الهوى بهم اليه طريقا

طرة الكتاب

وقد استفاد الشاذلي بويحيى من هذه المعلومات حيث استطاع الاطلاع على نسخة هذا الكتاب الخطية بمكتبة ليدن ، ورأى أن محتواه : كحديث بين متحاورين ، وأنه دراسة تحليلية لعاطفة الحب ، وأن فيه مشابهة لطوق الحمامة لابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ) (٩) ٠

لكنه لم يشر الى حجمه ، أو عدد صفحاته ، كما أنه لم يشر الى النسخة الموجودة في المدينة المنورة ، مما يدل على اكتفائه بالنسخة الموجودة في ليدن (١٠) ٠

ويرى أحمد بن عامر أنه مجموعة أخبار ونوادر ، ونصوص مختارة من الشعر (١١) ٠

وصف المخطوطة :

هذه الآراء والتعريفات دفعتني لمواصلة البحث ٠٠ ومحاولة الحصول على نسخة من هذا الكتاب النفيس ٠٠ راغبا اثارة الاذهان بتعريف واضح ، وجلاء ما يعتري الأفهام من تعريفات مقتضبة ٠٠ هذا سبب ٠

ولكن الجانب المهم ، والسبب الآخر هو أن هذا المخطوط النادر تحتويه مكتبة من مكتبات بلادي ، التي تشرئب اليها أعناق المسلمين ، وتهفو لسماعها أفئدتهم ، حبا في العقيدة ، وايمانا بروحهم الاسلامية ٠

ولكنني وبكل أسف أرى جهودنا قاصرة عن ايفائها حقها من التعريف والانارة ، أو المشاركة في نشر ما تشتمل عليه من تراث ، وثروات علمية ٠

ولعل في بحثي القاصر ، ما يفتح بابا جديدا لرعاية تراثنا ، واظهاره بما يجب من نشر وتعريف ٠٠ وحماية وصيانة ، وتنظيم لمكتبات الحرمين الشريفين لتكون محط أنظار لراغبي المعرفة ، والمتعمقين في البحث العلمي ٠

فالمخطوطات في كل بلد كنز ثمين ، وثروة لا تقدر بمال ، لا يعرف قدرها الا من حرمها ، أو بذل الجهد والجد في طلبها ٠

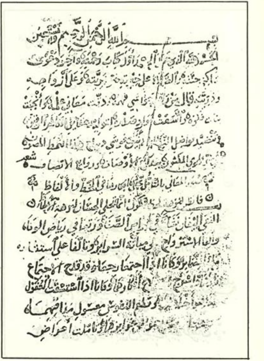

الورقة الاولى من الكتاب

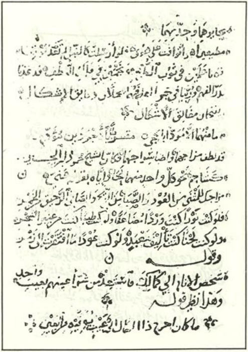

يجاذبهما وجاذبهما

مطيعاه ان توافقت على هوى لو ارسلتا كالنبال لم تقد

ما خلتين في ثوب الطبيعة بجمة وما الا لطف قد غذا

بدر الفهم وربيا في حجر المعرفة بحلال دنا بعد الاشكال

ينتحان مغالق الاشكال

ما منهما الا مودا ابحي مشوبا بخمر بين نقو

قد لطف مزاجها واضا شواجها فكان الشيخ محمود ابن الحسين

متناجم فحو كل واحد منهما بخدا اياه بقوله شعر

مزاجك للمثنى من العود والصبا من الابحر والتفاح الرحيق المخمر

فلو كنت نورا كنت وردا مضاعفا ولو كنت طيبا كنت من عنبر الشحر

ولو كنت لحنا كنت تاليف معبد ولو كنت عودا ما افتقرت الى زمر

وقوله

تشخص الابصار الى كمالك فاستعذ من شر اعينهم بعيب واحد

وهذا نظير قوله

ما كان احوج ذا الكمال الى عيب يوقيه من العين

الورقة الاولى من الكتاب

ان النسخة التي رجعت اليها من كتاب : المصون في سر الهوى المكنون هي النسخة الوحيدة الموجودة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة تقع فـي مائة وسبع وعشرين ورقـة «١٢٧» ، كل ورقـة صفحتان مـن القطع المتوسط (١٢) . والنسخة كاملة بمقدمتها وخاتمتها .

وقد قسم الحصري كتابه هـذا الى جزأين يبدأ الجزء الثاني ببداية الورقة «٦٢» ، ولم أجد في طرة الكتاب أو ثناياه ما يدل على أنه يسمى المصون فـي الدر المكنون ــ كما قال حسن حسني عبد الوهاب .

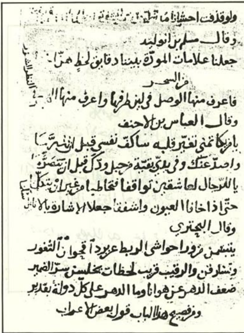

ولو قذفت احشاؤنا ما [illegible]

وقال مسلم بن الوليد

جعلنا علامات المودّة بيننا دقائق لحظٍ هنّ أخفى من السحر

فاعرف منها الوصل في لين طرفها واعرف منها الهجر في النظر الشزر

وقال العباس بن الاحنف

يا من يكاتمني تغيّر قلبه ساكفّ نفسي قبل ان تتبرّما

واصدّ عنك وفي يديّ بقيّة من حبل ودّك قبل ان يتصرّما

يا للرجال لعاشقين توافقا فتخاطبا من غير ان يتكلّما

حتّى اذا خافا العيون واشفقا جعلا الاشارة بالانامل سلّما

وقال البحتري

يتبسمن من وراء حواشي الريط عن بردٍ أقحوان الثغور

ويسارقن والرقيب قريب لحظات يختلسن سرّ الضمير

ضعف الدهر عن هوانا وما الدهر على كل دولة بقدير

ومن قبيح هذا الباب قول بعض الاعراب

بل عنوانه على الطرة : المصون في سر الهوى المكنون ٠٠ وهكذا لوح الحصري الى هذا العنوان بقوله في المقدمة يصف عمله التاليفي : فوشى ديباج هـذا المصون في سر الهوى المكنون (١٣) ٠

وقد كتب الكتاب بخط النسخ ، ولم يتضح لي زمن كتابته ، أو اسم الناسخ ، لكن الطرة والصفحة الاخيرة منه قد كثر بللهما ، فلا يستبعد مع ذلك ضياع بعض

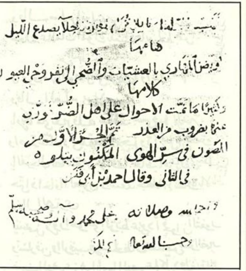

[illegible] نجلا بصدع الليل
هائمها
ويض المنادي بالعشيات والضحى الى نفروح العيون
كلامها
وكنيا ما تمت الاحوال على اهل الضر ورب
ننه بضروب من العذر تم الجزء الاول من
المصون في سر الهوى المكنون يتلوه
في الثاني وقال احمد بن ابي فنن

والحمد لله وصلاته على محمد وآله وصحبه وسلم
وحسبنا الله تعالى [illegible]

نهاية الجزء الاول من الكتاب

الكلمات التي ترشد الى ذلك ·· وكلما استطعت تدوينه من العبارات الواردة على الطرة هي :

عبارة « من كتب الدواوين » تحت هذا الرقم « ٦٠٢ » ، وأعتقد ان هذه العبارة حديثة الكتابة ، ذلك أن موضوع الكتاب لا يندرج تحت مسمى الدواوين ، كما سنوضحه في التعريف به ·

وقد جاءت عبارة « من كتب الادب » تحت هذا الرقم « ٨٠٠ / ٧٧٢ » ولعل هذه العبارة الحديثة ــ والتي أعتقد أنها مع سابقتها من عمل المفهرسين ، للمكتبة ــ اقرب للصحة ، فالأدب باب واسع ، تدخل تحته الدواوين والمنوعات والموضوعات المتخصصة (١٤) ·

وتحت ختم التمليك الذي يثبت امتلاك محمد عارف حكمت الله بن عظمة الله الحسيني من مدينة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أورد الناسخ هذه العبارة :

أعلم أن مؤلف هذا الكتاب أبو اسحاق ابرهيم القيرواني الشهير بالحصري صاحب كتاب زهر الآداب وغيره ، ثم أورد من شعره ثلاثة أبيات (١٥) ·

وفي الورقة الاخيرة أفرد الناسخ الوجه الاول من الورقة «١٢٧» لأبيات شعرية اختارها ولم ينسبها لقائل ، ولم تكن من شعر الحصري الذي استقصيته ·

ومع ما تمتاز به هذه الورقة من كثرة البلل والرطوبة بحيث انطمس أغلب ما فيها من عبارات ·· فهو يقول : « تم كتاب المصون في سر الهوى المكنون والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله الطيبين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت ثم · يوسف » ويبدو أن هذا هو اسم الناسخ لكنه لم يزده تعريفا · ويردف الناسخ في ايراد مجموعة من الأبيات المقطعة منها هذان البيتان :

أحمل قلبي كل يوم وليلة
هموما على من لا أفوز بخيره

كما سود القصار في الشمس وجهه
ليجهد في تبييض أثواب غيره

ومعدل ما تحتويه كل صفحة خمسة عشر سطرا ، ولا يزيد كل سطر عن ٩ كلمات ·

موضوع الكتاب :

هذا الكتاب كما أشار اليه الشاذلي بويحيى : « حوار بين اليفين ، نشأ في وفاء وصفاء » · انتحل الحصري شخصيتهما ولم يكن هذا الحوار خياليا الا في انتحال الشخصيتين فقط ، لأنه حديث تقرير عن واقع الحب ومسائله ، كما تعارف عليه الادباء والفلاسفة ، وليس الكتاب حوارا من أوله الى آخره ، وانما يكون الحور تمهيدا لما سيسوقه من أخبار العشاق وأشعارهم ·

وعلى العموم فاننا نستبين من موضوع الكتاب أمورا مهمة في الأدب العربي : ذلك أن طريقة الحصري التي اتخذها حوارا في كتابه ، رد على الزاعمين بأن الادب العربي ناقص في خياله ، قاصر في اخراجه ، بعيد عن محاكاة أدب الغرب في الحوار والموضوعية ·

فهذا الكتاب يمتاز بالخيال الواسع ، فالحصري عندما يتقمص هاتين الشخصيتين ، فهو يحيط بجوانب الحب وخفاياه ونوازعه وأهوائه ، في أسلوب جذاب وعبارات عميقة ·

ثم انه يقتصر على موضوع واحد يلتزمه ولا يحيد عنه ، وهذه هي الموضوعية ووحدة الهدف حسب مصطلح الأدب الحديث ·· ويندر مثل هذا الاسلوب في غالبية الكتب الادبية القديمة التي يبرز فيها الاتجاه الى الحشد والجمع حسب مدلول الادب عند العرب : بأنه الأخذ من كل فن بطرف ·

وفي حوار الحصري تمتزج أرواح الأليفين بالعتب الرقيق ، والتلطف في كسب الود ، في أسلوب هادىء يثير كوامن القلوب ، ويولد الهوى ، وهذا ما سار عليه الادب الحديث في الحوار المسرحي ·

ولذا نعتبر الحصري رائدا في هذا المضمار ·

فهو يبدأ الحوار بقوله : التقى اليفان نشأ في عراض الصفاء ، ورتعا في رياض الوفاء ، وألفا الاسترواح الى مباثة السرائر ، وتآلفا على استثارة ما في الضمائر (١٦) ·

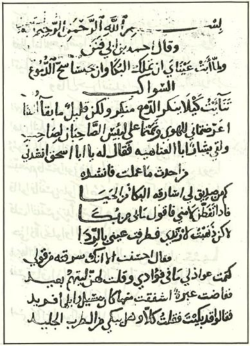

بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]
وقال احمد بن ابي فنن
ولما أبت عيناي ان تملك البكا وان تحبسا سح الدموع
السواكب
تناءيت كيلا ينكر الدمع منكر ولكن قليل ما بقا التنا
اعرضتماني للهوى وبخلتما على لبئس الصاحبان لصاحب
ولقي بشار ابا العتاهيه فقال له يا ابا اسحق انشدني
زاحدث ما عملت فانشده
كم صديق لي اسارقه البكا من الحيا
فاذا تفطن لامني فاقول ما بي من بكا
لكن ذهبت لارتدي فطرفت عيني بالردا
فقال احسنت الا انك سرقته من قولي
كتمت عواذلي ما في فؤادي وقلت لهن ليتهم بعيد
ففاضت عبرة اشفقت منها [illegible] فريد
فقالوا قد بكيت فقلت كلا وهل يبكي من الطرب الجليد

بداية الجزء الثاني من الكتاب

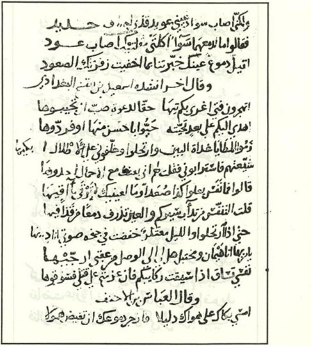

ولكنّي اصاب سواد عيني عويد قذى له طرف حديد
فقالوا ما لدمعهما سوا اكلتى مقلتيك اصاب عود
اقبل دموع عينك خبّرتنا بما اخفيت زفرتك الصعود
وقال اخر انشده اسمعيل بن المثنى البغدادي
اتهجرون فتى اغرى بكم تيها حقّا لدعوة صبّ ان تجيبوها
هذي البكم على بعد تحيّته حيّوا باحسن منها او فردّوها
زمّوا المطايا غداة البين وارتحلوا وخلّفوني على الاطلال ابكيها
شيّعتهم فاسترابوني فقلت لهم اني بعثت مع الاحمال احدوها
قالوا فما نفس يعلوا كذا صعدا وما لعينيك لا ترقى ماقيها
قلت التنفّس من ابدا بينكم والعين تذرف دمعا من قذا فيها
حتى اذا ارتحلوا والليل معتكر خفضت في جنحه صوتي اناديها
يا ربّها انا هيمان ومختبل اهل الى الوصل من عقبى ارجّيها
نفسي فداك اذا ضيقت ركايبكم فان عزمتم على قتلي فسوقوها
وقال العباس بن الاحنف
امسى بكاك على هواك دليلا وازجر دموعك ان تفيض همولا

تكملة بداية الجزء الثاني من الكتاب

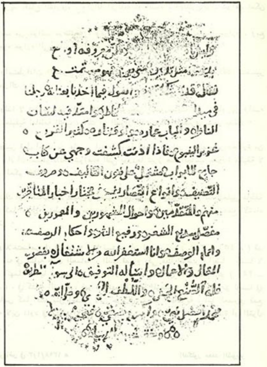

[illegible] معروفه او ع

[illegible] مثل [illegible] تمت ع

[illegible] فيما اخذنا بعنايته [illegible]

في [illegible] امتد فيه لسان

المناظرة والباب [illegible] الفرد ع ٥

[illegible] فاذا اذنت كشفت وجهي عن كتاب

جامع للابواب مشتمل على فنون التاليف [illegible]

التصنيف وانواع الاقتصار [illegible] اخبار المناظرين

منهم والمتقدمين واحوال المشهورين والمعروفين ٥

مفصل بجميع الشعر وفيع النثر واحكام الوصف

واتمام الوصف وانا استغفر الله من الاشتغال بفضول

المقال والاعمال وابتهاله التوفيق لما [illegible]

[illegible] واللطف [illegible]

[illegible]

[illegible]

الورقة الاخيرة وتمثل نهاية الكتاب

وتجد ظاهرة الاستطراد بارزة عند الحصري في ثنايا حواره ، كما هي عادته عندما يريد اقناع القارىء ، وازالة الرتابة أو السأم ، وذلك بايراد شواهد تمكن كل جانب من جوانب موضوعه ، وترسخ مناسبة المعنى الذي تضمنه حواره ، ومع هذا يجره حواره الى مناسبات أخرى غير بعيدة عن موضوعه ·

واستطرادات الحصري في هذا الكتاب تجعلنا نحكم بأنه يسوق ذلك للتفسير والاستدراك ·

ولذا لا تعارض بين قول الشاذلي بويحيى انـه حديث بين متحاورين وأنـه دراسة تحليلية لعاطفة الحب ، ذلك أن الحوار الذي ساقه الحصري يشعر بذلك ·

وبين قول أحمد بن عامر : انه مجموعة أخبار ونوادر ، ونصوص مختارة من الشعر ، اذ أن استطراداته وشواهده التي يوردها تبرز هذا الجانب بصورة خفيفة لا تستحق الحكم المطلق ·

ذلك أن الكتاب عند تقيده بموضوعه حوار بين اليفين ، ودراسة لتحليل عاطفة الحب ، كما أنه في استطراداته مجموعة أخبار ونوادر يوردها على سبيل جمع الأشباه والنظائر ·

وللاختصاص في الموضوع ، لا نستبعد أن ابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ) قد استفاد منه في كتابه طوق الحمامة ، الذي قصره على هذا الموضوع ايضا ، كما لا نستبعد أنهما استقيا سويا من مشرب أوجده محمد ابن داود الظاهري (٢٥٥ ـ ٢٩٧ هـ) ، في كتابه الزهرة ، فهو قدوتهما في هذا الموضوع · وهو السابق لهما في الاختصاص كما أنه مثل أعلى لابن حزم في مذهب الظاهرية ، أما الحصري فمع موافقته لابن داود في منهله الأدبي الا أنه لم يعرف عنه الانتماء عقيدة أو القول بالظاهر ·

الرياض في ١٣٩٨/١/٣ هـ

الدكتور محمد الشويعر

الهوامش والمصادر

(١) لقد امتدت الأيدي لمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وتسربت بعض موجوداتها الى مكتبات العالم ، وقد أشار الشيخ حمد الجاسر الى نماذج مروعة من تسرب نفائس هذه الخزانة بطريق غير مشروع ، وقد وجدت صور من المخطوطات تحمل اسم المكتبة بمكتبات شستربتي ولندن ٠٠ أثار هذا على صفحات مجلة العرب في أكثر من مرة ٠

(٢) انظر شعراء القيروان من انموذج الزمان جمع زيد الدين السنوسي ، ص ١٩ ، وقد ذكر ذلك الصفدي في الوافي بالوفيات ، ج٦ ، ص٦١ ، منسوبا عن ابن رشيق ٠

(٣) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٧ ٠

(٤) الحصري ـ بضم الحاء ـ و ـ سكون الصاد ـ نسبة الى عمل الحصر وبيعها كما قال ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١ : ٣٨ ٠

(٥) انظر شعراء القيروان من انموذج الزمان ، ص ١٩ الحاشية ، وذكره الزركلي في الأعلام ، ج١ ، ص٧ ، عن مذكرات الميمني ، وقال بان رقمه ٧٧٢ ٠
كما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٧١٢ ، وعنه نقل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ، ج٥ ، ص ١٠٦ ٠

(٦) الحلل السندسية ، تحقيق محمد الحبيب بن الهيلة ، ج١ ، ص ٢٧٧ ٠

(٧) مجلة الثريا التونسية ، السنة الاولى ، العدد ٩ ، ص ٥ ٠

(٨) مقدمة البشرى لجمع الجواهر وهو أحد مؤلفات الحصري ايضا ، طباعة الغانجي ، ص ج ٠

(٩) حوليات الجامعة التونسية ، العدد الاول ، ص ١٧ ٠

(١٠) لقد حاولت جاهدا الوقوف على معلومات عن هذه النسخة ، او الحصول على صورة عنها وسلكت طرقا متعددة باحثا ومنقبا ، منها الكتابة الى مكتبة في ليدن ، والكتابة للسفير الهولندي في جدة ٠٠ كما أعانني كثير من الاخوة الذين ديدنهم البحث والتنقيب ولم اتوصل

الى نتيجة حتى الآن ٠٠ وابلغني أحد الاخوة الباحثين بانه اطلع على ما نشرته بعض الصحف الغربية عن عزم مكتبات في ليدن بيع كثير مما تحويه خزائنها ، واخشى مع هذا فقدان الامل في العثور على النسخة الوحيدة في العالم بعد نسخة المدينة المنورة التي نحن بصددها ٠

(١١) الدولة الصنهاجية ، ص ٨١ ٠

(١٢) قال زين الدين السنوسي في شعراء القيروان من انموذج الزمان ، ص١٩ ، بانه يقع في أربعمائة صفحة كبيرة «٤٠٠» ، ويعني بذلك نسخة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، والموجود بالمكتبة الآن كما وصفت ، وهي التي أحال عليها الزركلي برقم ٧٧٢ ولا أعلم في المكتبة غيرها ٠٠ الا أن يكون السنوسي اطلع على نسخة ثانية غير موجودة الآن ٠٠ لأن مكتبة عارف حكمت امتدت اليها الأيدي ٠

(١٣) المصون ورقة ٢ الوجه الاول ٠

(١٤) انظر طرة الكتاب ٠

(١٥) الطرة ، قد وردت هذه الأبيات أيضا عند كل من :

١ ـ الدميري في كتابه حياة الحيوان ١ : ١١١ ٠

٢ ـ الشريشي في شرح مقامات الحريري ٢ : ٣٢٢ ٠

٣ ـ ابن ظافر في بدائع البدائة ١ : ٢٤٢ نقلا عن ابن بسام في الذخيرة منسوبا الى شيخ للحصري من مشيخة القيروان ولم يسمه ٠

(١٦) المصون ورقة ٢ الوجه الاول ٠

● ● ●